لقاءات رمضان ١٤٣٤هـ

اللقاء العشرون: تفسير الآيات ٥٧ – ٦٧ من سورة القصص

أ.أناهيد السميري

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، وسمحت لهنّ الأستاذة بنشرها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تُنشر في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

/!#/http://tafaregdroos.blogspot.com

تنبيهات هامة:

– منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

– هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد)

/http://www.muslimat.net

– الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله..

والله الموفق لما يحب ويرضا.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي وعد وتأذن بمزيد الفضل والإنعام على من اتقى وشكر، الحمد لله المنعم الوهاب الذي لا تنفذ خزائنه ولا ينقطع مدده، يده سحاء الليل والنهار، نحمدُه حمد الشاكرين المتقين، ونشهد أن لا إله إلا هو تنزّه عن الصاحبة والوالد والولد، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، خلق فأبدع، وأعطى ومنع، ورفع ووضع، فبيده عزّةُ الخلق، وبيده ذُلّهم، وقد جعل لذلك سنة، نحمدُه حمدًا يليق بجلاله ويدلّ على إيماننا. ونُصلّي ونُسلّم على عبده ورسوله مُحمد صلى الله عليه وسلم، الذي عبده واتقاه حق تقواه، وشكره وصبر على بلواه، صلى الله عليه وسلم، شرع الشرع، وأنزل الكتاب، وأجرى السحاب، وقسم الأرزاق سبحانه وتعالى، وأنعم على خلقه بالإيمان واختبرهم بهذا الإيمان، فكان صلى الله عليه وسلم خير من أُبتُلِي، وأحسن من صبر، وأفضل من شكر، وهاهم قومه كأننا نراهم كل يوم يتعذرون بعذر يردّون به دعوته، كما قال سبحانه وتعالى في هذه الآيات:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥٨ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ٥٩ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٠ أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٦١ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٦٢ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ٦٣ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ٦٤ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ٦٦ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ﴾ القصص: ٥٧ – ٦٧.

﴿ وَقَالُوٓاْ ﴾ هؤلاء القوم من قوم النبي صلى الله عليه وسلم معتذرين عن الإيمان، ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ ﴾ فهم قد تمكّن منهم الإلْف مع إعترافهم أن هذا الحق، لكن اعتذروا بهذه المعذرة

﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ ﴾ معترفون أنهُ هُدى ﴿نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ ﴾ هذه مبالغة في الخطف، الخطف هو انتزاع الشيء بسرعة، وكأنهم يقولون: سيأسِرونا، سيأخذونا.

فالله يردّ عليهم بأنه سبحانه وتعالى مالك الملك قد مكّنهم ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا ﴾ أي مع قلّتهم وقلّة عددهم أتاح لهم بلداً هو حرام آمن يكونون فيه آمنين من العدوّ، كأنهم يقولون: حولنا العرب وهم مشتغلون بالغارات وأقوياء ونحنُ قلة.

فالله يقول: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن ﴾ هذا فعلُه سبحانه وتعالى ﴿لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ ﴾ أي جمع ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا ﴾ من أين هذا؟ من أين لكم التمكين؟ جعل لكم مكاناتستقرون فيه، وجبيت إليكم الثمرات كأنها خَرَاجَ، من أين يكون هذا؟ أتظنون أن هذا أمر أنتم انتزعتموه بقواكم؟!

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ لا يعلمون أي شيء؟ أن هذه مجرد نعمة ربانية ليس لهم يد فيها، لكي يحسبوا أن الإسلام والاستقامة عليه سيؤدي إلى اعتداء العرب عليهم، من أين أتت حرمتكم ومكانتكم؟ من أين أتى أمنكم وأمانكم؟ من أين أتت أرزاقكم؟ أتظنون أن حرمتكُم بين العرب مَزِية ونعمة أسدتها العرب إليكم؟ لا تعلمون الحقيقة، أكثرهم لا يعلمون، لا علم ولا نظر، بل هم جهلة لا يتدبّرون الأحوال، وهذه حال تتكرّر في كل زمان، لا يعلمون أن التمكين وأن جلب الثمرات إليهم من فضل الله، فيظنّون أن الاستقامة على الدين سبب لتسلُّط الناس عليهم، هؤلاء وهؤلاء وما يسمونها بالدُوَل العظمى، وما يسمونها بالقُوى العُظمى، ولا يعلمون أن الاستقامة على دين الله سبب لزيادة الأمن والتمكين، ففي الأول عاملنا الله باسمه الحليم فمكّننا وأطعمنا، فإذا استقمنا زاد العطاء وزاد التمكين.

وإذا أردت أن تعرف ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾ ماذا فعلت؟ ﴿ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾، إذن ما أعطاكم الله إنما هو من فيض عطائِهِ، ليس للخلق يد فيه، فلا تكفرون فتتعرضون للانتقام، لا تظنوا أن ما عليكم من نعم إنما هي من جُهدكم، لا تظنوا أن متابعتكم للدين سيكون سبب لذهاب هيبتكم أو لفقدانكم للأمن، كيف على هذا تتفاوضون؟ كيف بهذا العُذر تعتذرون؟ ألا ترون حولكم شأن الأمم التي كفرت بنعم الله، لابد أن تعلموا أنهم كانوا مثلكم من الأمن والرزق، ماذا فعلوا؟ أنكروا نعمة الله وقابلوها بالبطر، بالبطر تكبروا وما اعترفوا بما يُسدى إليهم من الخير، نسبوها إلى أنفسهم، فوقع البطر في النعمة.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ فالبطر، بطر الأمن بطر الرزق واللهث وراء اللا شيء، تريد أن تعالجه؟ انظر حولك:

﴿ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ ﴾ واسم الاشارة بتلك، تلك مساكنهم يدلّ على أنه شيء ممكن أن يكون حاضرًا في الذهن، فمساكنهم كانوا يمرّون عليها، ولم تُسكن من بعدهم إلا قليلاً، أي لم يحل أحد في تلك البيوت، أصحاب البيوت انقرضوا عن بكرة أبيهم! ولم يأت أحد فينتفع حتى من بيوتهم إلا قليلاً، المارين بالطريق أو أحيانا المُعتبرين أو أحيانًا المصورين الذين يرونها آثاراً، فهذا القليل الذين يمكن أن يمروا بتلك الديار مساكنهم خاوية، خواء لا يعمُره عامر، سبحان الله، من ذاك الزمان تمرّ على هذه الديار، هُود وعاد وثمُود والقوم الذين كذبوا الأنبياء وقوم صالح، فماذا تجد؟ تجد أن الله قدر بقاءها خالية لتبقى عبرةً وموعظة بعذاب الله في الدنيا، ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم لما مرّ في طريقه إلى تبوك بحِجر ثمُود قال: ((لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ))[1]، معنى هذا الاقتصار على ضرورة المرور فقط، وهذا من شؤم هذه الأماكن، فتبقى هذه الأماكن لا يسكُنها أحد.

﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ فإذن اعتبروا بهؤلاء الذين أبقاهم الله عبرة، واعلموا أنهم بطروا معيشتهم، وتصوروا أن أثر البطر هذا جعل الله يغضب عليهم، ويتجاوز الغضب الساكنين إلى نفس المساكن.

[1] متفق عليه

﴿ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فالغضب تجاوز السكان وما وقع عليهم إلى نفس المساكن، فهذا مما يُرعب القلب! لا تبطر على ما أعطاك الله، لا تنتفع أنت ولا حتى ينتفع غيرك به فيبقى وراءك ينتفع به أحد ويبقى في ميزانك، لا، إذا بطرت أنت لا تنتفع ولا يُنتفع بهذا الشيء، إذن لا تقل لو اتبعت الهدى سأُحرم، بل قل: لو اتبعت الهُدى سيزيد عطاء الله، وانظر إلى الذين بطروا معيشتهم واغتروا بحلم الله، ورأوا الله عزّ وجلّ ينظُر إليهم وهم يعصون ولا يعاقبهم فظنّون أنهم على خير، وزاد بطر فعلهم وألسنتهم، أُنظر ماذا فعل الله بهم.

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ تعالى الله، ما كان مهلكها ﴿ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ ﴾ تعالى الله عن الظلم، هذه القرى التي أُهلكت بيّن الله ما سبب هلاكها، فالله عزّ وجلّ كامل الصفات، ولا بد أن تعرف أن التي أُهلكت تستحقّ، تستاهل الإهلاك، فيبعث الله في أمّ هذه القرى؛ أي في القرية الكُبرى أي كأنها العاصمة، مهبط أهل القرى والبوادي المجاورة، بحيث أنه لا تخفى دعوة الرسول في هذه القبيلة أو في هذة الدولة، وأهل أم القرى دائمًا قدوة لغيرهم في الخير والشر، فهم أكثر استعدادًا لإدراك الأمور، المقصد أنّ الله عزّ وجلّ لا يهلكهم حتى يبعث رسولاً يتلوا عليهم الآيات.

﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ أي هذا هو السبب الحقيقي، ما يُهلك أهل القرى إلا في حالة ظُلم أنفسهم بالشرك أولاً، **فالإشراك هو السبب الرئيس للإهلاك**. ثم يأتي بعد ذلك المعاصي الكبار كالربا الذي هو كمثل ست وثلاثين زنية من الرجل؛ أي إذا زنى الرجل ست وثلاثين مرة درهم من ربا يوازي الست وثلاثين مرة! والحرب على أهل الربا.

فأول مصيبة وأول الظلم الإشراك، فإذا سُكت على الشرك هنا وهنا وهنا في أنحاء دولة أو القرية، وسَمّوا الشرك بغير اسمه، وقالوا هذا تقرّب للصالحين، هذا مكانة الصالحين، هذه بركات الصالحين، هذا التعامل مع الأولياء، ثم انقلبت عليهم أحوالهم، ثم تراهم من أمن إلى فوضى، ثم تراهم من سعة رزق إلى ضيق، ومن ضيق إلى أضيق، ومن أضيق إلى أضيق منه، ويبحثون ويتجمهرون ويسألون..

الحل: استجيب لدعوة الرسل، أزيل هؤلاء من طريق الناس فليدعو الله الخلق كلهم ولا يسألوا غير الله.

فالمقصد أن الله لا يهلك القرى إلا وقد وقع الظُلم الكبير وهو الشرك، وما بعده من أنواع المعاصي، وقد فشى في الديار التي أهلكها الله فشى فيهم تكذيب الرسول، وفشى فيهم التعدي على الله وعلى دينه، وفشى فيهم الإستهانة بالمعاصي والمجاهرة بها، فمن تكذيب الرسول إلى سبّ الله والعياذ بالله، إلى الربا والزنا، والله يُعامل الخلق بالحلم فيغترون، فإذا أخذهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

فلما ذكرهم الله بنعمه وهم يقولون ﴿ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ وأخبرهم أنه هو الذي يسبب لهم أسباب جباية الثمرات إليهم، بيّن لهم أن كل ما أوتوه من نعمة فهي من متاع الحياة الدنيا، الأمن، الرزق، اللباس، الأنعام، المال ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ﴾ هذا الذي أُوتيته من الدنيا فمتاع الحياة الدنيا وزينتها.

﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ ما عند الله من نعيم الآخرة من ذلك، ما عند الله من نعيم الآخرة أبقى من هذا المتاع الذي في الدنيا، لا تظنّ أنّ الغاية المطلوبة هي الأمن والرزق في الدنيا، إذن متى ستبذلون لتحصلون النعيم العظيم الأبدي؟!

ما يتحصّل النعيم العظيم إلا بالإيمان، ولا يتحصّل الإيمان إلى باتباع الهدى، ولا يتبع الهدى إلا بعد أن تعرف سنة النبي صلى الله عليه وسلم، بعد أن تجعل النبي صلى الله عليه وسلم قائداً وهادياً، بعد أن تجعل كلامه بين عينيك، بعد أن تنشر العلم بين الناس، من أجل أن يكونوا كلهم على قلب رجل واحد في شأن دينهم، فلما يُحكم فيهم بالشرع يكون سيف الشرع على رقابهم ما يتعدونه ولا يردونه، واعلموا أن في اتباع الهدى تقوية ما أنتم فيه من أرض وخير لو سَلِمَ لكم دينكم.

إذن وما أوتيتم من شيء في هذه الحياة الدنيا نهايته، أنه ﴿ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ فسيبقى ما عند الله ينفعكم في الدنيا وينفعكم في الآخرة.

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ فستجدون لو كان لكم عقل، ستجدون أن وراء الإيمان الخير الكثير، فلا يُباع بهذه الدنيا ولا يباع بالأقيسة العقلية، إنهم يستعملون عقلهم، فأول الأمر أكثرهم لا يعلمون، وآخر الأمر أنهم لا يعقلون.

﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾

أي: فلنفترض أنّ أهل الشرك معهم وفرة الأموال ونعيم الترف، في حين أن مُعظم المسلمين فقراء وضعفاء، المشركُون يتبجّحون على المسلمين بوفرة المال ونعيم الترف، كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴾ المطففين: ٣١ أي منعمين، فهذا معناه ويظهر كثيرًا في القرآن أن المشركين كان من دأبهم التفاخر بما معهم من نعمة، ولذلك يقال لهم: ﴿ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾ الأنبياء: ١٣ فالله أنبأهم هنا أن ما هم فيه من الترف إن هو إلا متاع قليل، في مقابل النعيم العظيم الذي أعده للمؤمنين، فلا تغُرك الدُنيا.

﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ ﴾ كمن يحصل له هذا الأمر أن يُمتع متاع الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكون من المحضرين، بمعنى أنه يكون من أهل الخَسَار، والخسارة هنا ليس فقط حرمانهم من نعيم الآخرة، بل تعرضهم للعذاب، أي سيكون من المحضَرين للجزاء، فمن وعده الله وعداً حسنًا، هل يمكن أن يكون مثل من هو مهدّد بعد نعيم قليل بعذاب عظيم، فمتاع الحياة الدنيا في الآية السابقة يدلّ على أنه لا شيء، ما عند الله خير وأبقى.

﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ ﴾ لابد أن يكون لاقيه، نحن على يقين أننا سنلقاه، نحن على يقين من استقام في الدنيا على دين الله سيجد يوم القيامة ما وعده ربُه، فلا يغرّك من مُتعوا متاع الحياة الدنيا، سيكون يوم القيامة من المحضرين.

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ معناه الانتقال إلى هذا الموقف العظيم يوم القيامة، أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ؟ فهذا فيه أعظم دليل على أن يوم القيامة سيكون يوم الحساب العظيم، الحساب على الافتراءات التي دخل فيها القوم وأصرّوا عليها!

﴿ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ هذا استفهام، أين هم؟ أين المزعومين الذين تزعمون أنهم شركاء؟ سيُجيب بعض الذين خُطبُوا :

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ﴾ والمعنى : أنهم سيعترفون أنهم ضلّوا وأضلّوا الضالّين ووقعوا في إغوائهم.

﴿ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ﴾ رأوا العذاب الذي يستحقُّونه.

إذن في هذا اليوم يناديهم ﴿ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ﴾.

سيناديهم نداء آخرًا: ﴿ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ ماذا أجبتم؟ أجبتم من؟ المرسلين في الدعوة إلى التوحيد وإبطال الشرك والشركاء، والمرسلين هنا بالنسبة لنا النبي صلى الله عليه وسلم الذي وافق الأنبياء قبله، فنحن به مؤمنون وبالأنبياء قبله مؤمنون، ماذا أجبتم المرسلين وليس أحد آخر غير المرسلين.

ولهذا علينا أن نستعد لهذا السؤال (ماذا أجبتم المرسلين؟) لا تضع بينك وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد، إنما استرشد بمن يرشدُك، ماذا أرشدك الرسول؟ نفترض أنك لا تستطيع أن تعرف مباشرة بماذا أمرنا الرسول في هذه الحال وفي هذه الحال وهذه الحال، خصوصًا لو كان في مواقف بسيطة في المسائل الدقيقة وليس في عظيمها، المسائل العظيمة يجيب علينا جميعاً أن نتعلمها لكن في مواقف بسيطة ومسائل دقيقة ما أعرف ماذا علي وماذا أمرني الرسول، فماذا أفعل؟ علي أن أسترشد من يرشدني، ماذا أرشد الرسول؟ إلى أي شيء؟ ماذا دلني؟ ولا آخذ من أهوائهم ولا أميل معهم، فلا تأخذ إلا ممن تعرف أنه يعظم الرسول صلى الله عليه وسلم، لا يفقه الواقع ويُميلك إليه، ويختار لك ما يناسب الواقع الذي تميل أنفسهم إليه، والذي فيه أهواء، المهم هؤلاء سُئِلوا:

﴿ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ ﴾ فسكتوا كلهم، في المقابل لما سئلوا أين شركائي الذين كنتم تزعمون؟ هناك من أجاب، لكن هنا لما سئلوا ماذا أجبتم المرسلين؟ عميت عليهم الأنباء، خفيت عليهم، وهذا مأخوذ من العمى؛ لأنه يجعل صاحبه لا يتبيّن الأشياء، غير عارف الطريق، السبب أنه لم يعش على هذا الطريق، لم يكن على هذا الطريق، خفيت عليهم الأنباء ولم يهتدوا إلى جواب، وذلك من الهول ومن تركهم الطريق

في الدنيا، من تركهم الاعتناء بطريق الأنبياء، لما نودوا أين شركائي الذين كنتُم تزعمون انبهرُوا رؤساءهم لفّقوا جوابًا، الجواب الذي لفقوه في البداية يريدون أن يعدلوا عن جادة الاستفهام، يريدون أن يهربوا، يريدون أن ينكروا أنهم كانوا هم الذين سنوا لأقوامهم الضلال، فلما سئلوا عن جواب دعوة الرسل لم يجدوا جوابًا، ما عندهم طريق للمغالطة، ما في أحد سبقهم ممن سلفهم بتكذيب الرسل، فإن الرسول بُعث إليهم .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَآ ﴾ يعني خرجنا من الدنيا وجدنا الناس يمشون كذا فمشينا وراءهم.

﴿ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ لما ناداهم فسألهم ﴿ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ لا يسأل بعضهم بعضًا لاستخراج الآراء، بُهتوا فهم محقوقون بالعذاب.

﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾ فلما ذكر الله عزّ وجلّ حال المشركين، ذكر حال الفريق المقابل، وهذا من ما نعرفه من القرآن أنه من المثاني لأن الأحوال تزداد تميزاً بذكر أضدادها، فذكر الله عزّ وجلّ هنا صفات لمن تصلح له الحياة الدنيا، ولمن تصلح له آخرته.

إن التوبة والإيمان والأعمال الصالحة من أعظم أسباب الفلاح

بعدما سمعنا حال أهل الشرك، وكيف أنهم بطروا معيشتهم، وكيف أنهم يوم القيامة لما ناداهم وسألهم أين شركائي الذين كنتم تزعُمون؟ والله ليس له شريك، تبيّن باطلهم، ردّ الرؤساء والقادة في الكفر والشر، ردّوا بردود أن هؤلاء الذين أغويناهم لم نكُن نُريد إغواءهم لكننا اشتركنا في الغواية، وتبرؤوا منهم، قيل لهم جميعا اطلبوا الشركاء، فدعوهم فلم يستجيبوا لهم الشركاء، ثم ناداهم نداء آخر ماذا أجبتم المرسلين؟ هل صدقتموهم؟ هل اتبعتموهم؟ ماذا فعلتم؟ ما عندهم جواب! ومن المعلوم أن هنا ما ينفع الإنسان إلا أن يكون متابعاً للنبي صلى الله عليه وسلم، فها هي صفة المُتابعة تظهر في هذة الآية : تاب، وآمن، وعمل صالحًا.

١) ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ ﴾ سنبدأ **بالتوبة** التي هي طريق من أعظم الطُرق التي تُدخل العبد على الله، من أوسع الأبواب، لو يعلم الناس ما في هذه العبادة العظيمة من مصالح ما فارقوها، ولعلِموا أنها حقاً **وظيفة العمر** التي عليهم أن لا يتركوها، فكانت التوبة هي مبدأ العمل.

ننظر للآية : ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾

وإن كانت الآية في سياق من انتقل من الباطل إلى الحق، لكنها تعُمّ

فكأننا نستقبل الأيام المباركة والأعمال المباركة بهذا العمل العظيم

- التوبة عما سلف وكان
- التوبة عن العصيان
- التوبة عن الإجرام
- التوبة عن عدم الشكر
- التوبة عن مخالفة النبي صلى الله عليه وسلم
- التوبة عن الاستهتار والاستهانة
- التوبة التي تدلّ على أن العبد يشعر حقاً بتقصيره في حقّ ربه

التوبة وظيفة العمر!

- إنها تمحو السيئات
- وتُبيض الصحائف
- وتُصلح أحوال القلب
- إنّ حرارة الندم التي تكون في التوبة تحرق سيئات العبد، تحرق الجليد الذي تكوّن على قلب العبد، فجعله باردًا في شكر ربه، وفي الشعور بنعمائه، وفي طلب الوصول إلى رضاه.

كم هي نعمة عظيمة أن تعيش السنين وقد انشغلت أو التهيت أو بُليت بصاحب -بخليل- يفتنك! أو بدنيا تأخذك فتتراكم السيئات، فينعم عليك الله عزّ وجلّ بأعظم أبواب النعم، فيفتح عليك باباً عظيم تمحو به ما مضى من هذا كله، **فتأتي النعمة العظيمة وهي نعمة التوبة** التي أنعم الله بها على السالكين إليه، فهذه العبادة بنفسها تحتاج إلى شُكر! أنه ما أغلق علينا الأبواب بل فتحها، ما قَنّطْنَا بل رجَّانا! وإن الرجل ليعصي الله ستين عامًا ثم يُعلن صادقًا إني تُبت، فيقبلُه التواب الغفور! وهو بهذه العبادة فقط وليس بغيرها.

أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم كما في الحديث أنه سبحانه وتعالى يفرح بهذه العبادة فرحاً يليق بجلاله[٢]، **فما أعظمها من عبادة تُبْتدأ بها الأيام المباركات التي سندخُل عليها**، وبها نرجو من الله أن تكون خاتمة حياتنا، عبادة عظيمة، منّةٌ كريمة، يُحبها الله، بل يفرحُ بها.

وأعظم التوبة: **توبة من الشرك**، سواء كنا نعلم أو لا نعلم فنتوب لله من الشرك، فكم لاحظ الإنسان بقلبه ثناء غير الله، وهو يطيع الله سواء كان في علم أو عمل؟! وكم اشتاقت نفس الإنسان لرضى غير الله بعمل لا يُتقرب به إلا إلى الله، يُحب أن يُمدح على طاعة أو على علم أو على عمل يُتقرب به إلى الله، فهذا أول ما يُتاب عنه، وأعظُم ما نخشاه على ديننا، فإن **الرياء من أفسد ما يُفسد أعمال الخلق**، ومثل الرياء الشهوة الخفية، حُب الترئُّس والتقدُّم على الخلق، وكل هذا يحتاج إلى توبة، على كل حال تفاصيلها تطول..

فإذا أردت أن تتوب ففتّش وقلِّب في نفسك وتعلَّم هذه الأنواع من الآثام، من أن أجل أن تكون مبدأ توبتنا عن أعمالنا القلبية مثل: الرياء، العجب، الكبر، واسأل عن مثل هذه البلاءات العظيمة التي تذهب بقلب العبد وتذهب بطاعته، فإن هذه كافية أنها لو خالطت عمل العبد أفسدته وذهبت به، وأصبح عمله سيئة عليه، وهو المسكين يُريد أن يتقرّب بعمل قد أفسده على نفسه.

- **فنبدأ بالتوبة عن أعمال القلوب**، عن المعاصي القلبية، عن الكبائر القلبية، فتِّش، وللأسف سنجد، وما أكثرها! وما ألطفهُ بنا وأرحمُه بنا، وقد سمعنا فيما مرّ معنا كيف أنّ من عظمته أن يُعاملنا يوم القيامة وهُو الملك الرحمن، كيف يُعاملنا برحمته، فنحن نطمع أن يُعاملنا برحمته طمعًا يفوق جميع أعمالنا، إنّ رجاءنا به يفوق جميع أعمالنا، بل إن أعمالنا الضعيفة سبب لطلب رحمته، فأعمالنا من أبوابُ رجائه، فإذا كنا نرجوه أن

[٢] صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب فِي الْحَضِّ عَلَى التَّوْبَةِ وَالْفَرَحِ بِهَا.

يُعاملنا برحمته وأعمالنا ليست بشيء، فلنتب عن ما وقع في أعمالنا من خلل، فهذا أول ما يتاب عنه وهو الأَخلاط القلبية.

- **ثم يُتاب عن نقص الطاعات والعبادات**، ضعف الاستقامة على الطريق، تضييع رأس المال وهو وقتنا، تضيع صحتنا فيما لا ينبغي، نقص شكرنا لنعمائه، كلمات البطر التي يمكن أن تجري على ألسنتنا، التذمّر من قضائه وقدره، التسخّط على ما صرّفه ودبّره لنا، فنعدّ مثل هذا ولا يُعدّ! فما لنا إلا التوبة عن جميع أحوالنا والندم الشديد، والحرص على أن نتعلم ما هو الخطأ فنتوب، ويكون في قُلوبنا عزم على ألا نعود.

٢) ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ ﴾ فصَبَّ على نفسه الإيمان صبًّا، وللإيمان أسباب لكي يثبت ويزيد، من أهمها هذه النعمة العظيمة (**القرآن**) **تدبُّرًا وتفكّرًا وتقليباً للبصر والعقل والقلب في الآيات**، فمن اعتكف على كتاب الله واعتنى به وسأل واستفهم، زاد إيمانه، ومن حرص على أن يعرف ربه من كلامهِ، ما يُحبيه الله، فيبصره ويزيدهُ ثباتًا على الطريق.

٣) ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ والإيمان لابد أن يُرشد أصحابه للعمل الصالح، فإن العمل الصالح هو الثمرة الحقيقية التي يصل بها العبد من طريق الإيمان، أي تقتطف العمل الصالح من شجرة الإيمان، ولذلك كانت التوبة هي الوسيلة الأُولى التي بها تغسل قلبك، ثم تزرع في قلبك الإيمان، ثم تقطف ثمرتهُ بالعمل الصالح.

- فمن علم أنه سيكون منفرداً في قبره لا يؤنسه إلا عمله، فكم سيحرص على عمله!
- من آمن أنه سيلقى ربه يُكلمه ما بينه وبينه تُرجمان، حرص على أن يكون ذاك المقام أحسن مقام بالإحسان في الصلاة وهكذا.

ثم تُختم هذه الآية العظيمة فيقول الله ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ﴾ وهذا من تمام عطائه، أنه سبحانه وتعالى يعطي العبد أسباب الفلاح ثم يقال له: إن جمعت هذه الخصال فأنت من الناجين، فأنت من المُفلحين، ولا سبيل لفلاحك يوم أن تلقى ربك إلا بهذا الطريق.

هذا طريق اختصر علينا الدِّين، تصل في آخره إلى الفلاح

- تُبْ فاغسل قلبك، وحسِّن تُرْبَتك
- وآمِن، فتزرع شجرة الإيمان في قلبك
- واعمل فتلك هي الثمرة

وهذا كله **وأنت تطمع أن يقبلك الله**، فإن القبول في حالنا هو أكثر همومنا، قد تعمل وتعمل، فلا ترضى عن عملك، ولا تجْزِم بالقبول، إنما أبذل الجُهد في طلبِ قَبول الله!

خصوصاً ونحن مقبلون على هذه الأيام الفاضلة والساعات المباركة، مالنا إلا أن نسأله سبحانه وتعالى أن يقبلنا وأن يشرح صدورنا في هذه الأيام للانتفاع بهذه النعمة العظيمة، أيام مباركات فيها ليلة أحسن الله عزّ وجلّ إلينا بها، نرجو من الله عزّ وجلّ أن ينعم علينا بقيامها أحسن قيام.

- نستعدّ لها بالتوبة والإيمان والأعمال الصالحات
- نستعينُ به عليها
- ونستعيذ من الكسل ومن شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.